المسؤوليات المشتركة بين العرب والغرب

رضوان السيد *

1

فكَّرتُ طويلاً ـ في هذا العنوان الذي أرادت مني الجامعةُ العربيةُ التحدُّث فيه إليكم هنا بجامعة Mainz، وذلك لاتّصاله بفكرةٍ مسبقةٍ إذا صحَّ التعبير، وهي أنّ هناك مشكلة في العلاقات بين العرب والغرب، وأنّ المطلوبَ اقتراح سُبُلٍ أو التفكير في سُبُلٍ للخروج منها. وأذكر بهذه المناسبة أنّ المرة الأولى التي سمعتُ فيها بمسألة الجسور إنشاءً أو ترميماً تعود للعام 1974م وفي مؤتمرٍ مُشابهٍ بجامعة توبنغن Tubingen وقد تحدث المحاضرون يومَها عن الآفاق الاقتصادية للعلاقات إبّان الفورة في أسعار النفط والتي أعقبت حرب أكتوبر 1973م كما نعلمُ جميعاً. وقتَها استخدم العربُ ـ تقودُهُم المملكة العربيةُ السعودية ـ النفط سلاحاً، لا لتحسين العلاقات الاقتصادية، بل للضغط من أجل التسوية في الشرق الأوسط، وهي التسوية التي رجا العربُ وقتَها أن تُزيل الاحتلال الإسرائيليَّ عن أراضي مصر وسورية، وأن تفرضَ حلاً ـ عادلاً ـ للقضية الفلسطينية. والظريفُ والمأساويُّ في الوقت نفسه أنّ الأيامَ الماضية شهدتْ مؤتمراً دولياً للغرضِ نفسه بأنابوليس دعتْ إليه الولاياتُ المتحدة بعد خمسةٍ وثلاثين عاماً على حرب أكتوبر. وخلال هذه العقود كلِّها نشبت عدةُ حروب، آخرُها حربُ يوليو (تموز) عام 2006م بين حزب الله وإسرائيل على أرض لبنان، وما تزال الأراضي السورية التي احتُلّت عام 1967م تحت السيطرة الإسرائيلية، وكذلك بعضُ الأرض اللبنانية، والأهمُّ من ذلك أنّ القضية الفلسطينية ما تقدمت الحلولُ بشأنها رغم مؤتمر مدريد، واتفاقيات أوسلو، وعشرات المشروعات والخطط ومن بينها خارطة الطريق التي يُرادُ الآن اعتبارها آلية تقودُ للحلّ النهائي المتمثّل في قيام دولتين على أرض فلسطين التاريخية. واللافتُ الآن ليس استمرار المشكلة الفلسطينية فقط؛ بل وجود نزاعات وانقسامات أُخرى أبرزُها ناتجٌ عن الاحتلال الأميركي للعراق عام 2003م، وانتشار الاضطراب في سائر أنحاء المشرق لعدة أسبابٍ يمكنُ تركيزُها في خمسةٍ هي: عدمُ حلِّ المشكلة الفلسطينية، وسياسات الولايات المتحدة بعد نهايات الحرب الباردة، وبروز الملفّ الإسلامي، وهشاشة الدولة الوطنية/القومية بالمشرق، والصراع المتجدد بين الولايات المتحدة وإيران في أنحاء شتّى وعلى عدة مسائل.

إذا تأمَّلْنا المشكلات أو القضايا الخمس نجدُ بالفعل أنها تُلخَّص أو تجمعُ القضايا العالقة بين العرب والغربيْن: الأميركي والأوروبي. بيد أنّ المسؤوليات تتفاوتُ في المقدار، كما أنّ الأطراف الغربية ليست جميعاً في الموقع نفسه. فالعربُ يتحملون مسؤولية أكبر في

قضية هشاشة البناء الوطني في عددٍ من دُوَلهم. كما أنّ العجزَ العربيَّ عن إقامة تكتّل اقتصادي حتى الآن -رغم أنّ مشروعَ التعاون أو الوحدة الاقتصادية ضمن دول الجامعة العربية يعودُ للعام نفسه الذي عُقد فيه اتفاقُ الفحم والصُلب بين فرنسا وألمانيا- لا يساعدُ على التطوير وإحلال التوازُن في العلاقات، وبناء الجسور المُرْضية لسائرِ الأطراف. وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر، أعني الجانبَ الغربيَّ نجدُ مسؤولياتٍ مشتركة لكنها متفاوتة. وأوضحُ دليلٍ على ذلك أنه في سائر المشكلات التي ذكرْناها بين العرب والغرب -باستثناء الملفّ الإسلامي- أدَّت أوروبا وتؤدّي دَور الوسيط تارةً بين العرب وإسرائيل أو بين العرب والولايات المتحدة أو بين إيران والولايات المتحدة. وهذا يعني أنّ السياسات الغربية تُجاه منطقتنا وإن تكن منسَّقة إلى حدٍ ما؛ فإنها ليست واحدة. ولدينا عدة أمثلةٍ على اختلاف الأدوار أو اختلاف المواقع من المشكلات. فالدول الأوروبية الرئيسة يختلفُ موقفُها وموقعُها من الولايات المتحدة في غزو العراق. ويختلفُ موقعُها ودورُها من الولايات المتحدة في اللجنة الرُباعية المعنية بمعالجة الملفّ الفلسطيني والإشراف على تنفيذ خارطة الطريق. كما أنّ أكثر تلك الدول لا ترى ما تراه الإدارةُ الأميركية في طرائق معالجة الملفّ النووي الإيراني. وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنما يَدُلُّ على أنّ السياسة الأميركية مضتْ بعيداً في استخدام القوة بدلاً من الدبلوماسية في العقد الأخير من السنين. وقد أدَّى ذلك إلى نشر حالةٍ من عدم الاستقرار في المنطقة العربية، ناتجة عن تعقّد المشكلات القديمة مثل مشكلة فلسطين، كما أدَّى ذلك إلى خَلْق مشكلاتٍ جديدةٍ أهمُّها الوضْعُ العراقيُّ الحالي. ولأنّ العربَ يشكّلون الجوارَ التاريخيَّ لأوروبا، ولأنهم الشريك الرئيسُ في مسألة الطاقة، وللعلاقات الثقافية البعيدة المدى، ولاهتمامهم بأمن إسرائيل؛ فقد تحملوا بالتدريج عبئاً رئيساً في الوساطة بيننا وبين الولايات المتحدة وإسرائيل. وهناك مَنْ يُحَمِّلُهُمْ قدْراً بارزاً من المسؤولية؛ لأنَّ كلَّ الملفّات التي تولّوها ما وصلتْ إلى الأُفُق المرجُوّ حتّى في المسارات والملفّات المتعلّقة حَصْراً بالعلائق بين دول الجامعة العربية ودول الاتحاد الأوروبي الفاعلة.

2

لدينا إذن ثلاثة أنواعٍ من الملّفات المشتركة، والتي تُسهمُ السياسات والتصرفات في بناء الجسور فيما بيننا أو إضعافها وقطْعها؛ النوع الأول وهو الأبرزُ وإن لم يكن ضرورياً أن يكونَ دائماً الأهمّ، وهو المتعلّق بالقضايا السياسية القديمة أو المستجدّة. وفي هذا النوع يؤدّي الأوروبيون دورَ الوسيط، وقد ظلّت نتائجُهُ متواضعة كما يبدو من النزاع على فلسطين، والصراع على العراق. والنوعُ الثاني وهو الخاصُّ بالعلاقات بين دول الجامعة العربية، والاتحاد الأوروبي. وهذه العلاقاتُ فيها الاقتصادي وفيها السياسي، وفيها الثقافي، والأوروبيون يستطيعون أن يكونوا مُبادرين فيها، لكنهم لم يكونوا كذلك في كثيرٍ من الأحيان. والعربُ يتحملون قدراً من المسؤولية؛ لأنهم ما تعاملوا مع أوروبا باعتبار انتمائهم جميعاً إلى الجامعة العربية؛ وإنما غلبت صعْبَغةُ التفرُّد تماماً مثل تعامُلهم فُرادى مع الولايات المتحدة.

في هذين النوعين من العلاقات، علاقات الوساطة في حل المشكلات التي تسببتْ الولاياتُ المتحدةُ في تعقيدها أو خلْقها، والنوعُ الآخرُ المتعلقِ بالصلات بين دول الاتحاد الأوروبي والعالم العربي؛ تلوحُ فُرَصٌ جديدةٌ تستحقُّ البحث والتفكير والتقدير والاستغلال. هناك من جهة الفورة الكبيرةُ في أسعار النفط، والتي وسّعتْ من الآفاق التنموية العربية، وصنعت إمكانياتٍ هائلة للاستثمار المتبادَل والاعتماد المتبادَل. وإذا استمرتْ هذه الانطلاقةُ العربيةُ لحدود العام 2020م؛ وبنسبة نموٍ مستدامٍ معتبرة؛ فإن العرب سيكونون شريكاً كبيراً في الاقتصاد العالميّ. وهذه فُرصةٌ لهم ولأوروبا وللعالم كله لبناء الجسور والشراكات، والمشاركة في تقدُّم العالم وسياساته وأمْنه ومستقبله. وهنالك إحصائياتٌ وتقديراتٌ يتبادلُها الخبراء تُشيرُ إلى الفوائد والميزات التي يجنيها الأوروبيون والأميركيون والأسيويون من الإقبال على الأسواق والبورصات العربية.

بيد أنّ هذه الفرصةَ الكبيرةَ تتهدَّدُها القضايا والمشكلاتُ العالقةُ والتي تتسبَّبُ في الحروب وانعدام الاستقرار. وأهمُّ هذه المشكلات -كما سبق القول- الصراعُ على فلسطين، والغزو الأميركيُّ للعراق، والعاملُ الإسلاميُّ الذي سنعودُ إليه فيما بعد. فبعد تردُّدٍ طويل، وانحيازٍ واضحٍ لإسرائيل، دعت الولاياتُ المتحدةُ إلى مؤتمر أنابوليس الذي انعقد يوم 27/11/2007م بعد تحضيراتٍ سريعة. وكان العربُ قد تقدموا في قمة بيروت عام 2002م بمبادرةٍ شاملةٍ للسلام على أساس قرارات الأمم المتحدة وما أصغى إليهم يومَها أحد، ثم عادوا فأكَّدوا عليها في قمة الرياض في ربيع العام 2007م. ولكي نُدرك هَول وفداحة هذه المشكلة الكبيرة على العرب وعلى المنطقة وعلى العالم، نذكرُ أنّ العرب والإسرائيليين خاضوا عدة حروبٍ فيما بينهم طوال العقود الخمسة الماضية، وأنّ لبنانَ وحده عانى من سبعة اجتياحاتٍ إسرائيلية، وأنّ إسرائيل ما تزال تحتلّ أراضي في فلسطين وسورية ولبنان، وأنّ اللاجئين والمطرودين من أرضهم من الفلسطينيين يزيدون على الخمسة ملايين، وأنّ الأصوليات الإسلامية كلها حتى في شبه القارة الهندية وإندونيسيا -فضلاً عن إيران منذ قيام الثورة الإسلامية فيها عام 1979م- ترفعُ راية فلسطين في شعاراتها وغاراتها في سائر أنحاء العالم. لا يستطيع الأوروبيون أن يبقوا متفرجين أو وُسطاء، بحكم العلاقات الروحية، وبحكم الجوار، وبحكم المصلحة في الاستقرار. ولدينا اليومَ وبدون عودةٍ لآلامِ الحلول الجزئية والانحيازات الدائمة، لدينا قراراتُ الشرعية الدولية، ولدينا المبادرة العربية للسلام الشامل، ولدينا أخيراً مؤتمر أنابوليس الذي حضرته ست عشرة دولة عربية، بالإضافة للدول الخمس في مجلس الأمن، والأوروبيين، ودولٍ كبرى من سائر القارات. إنّ في الخروج من الاضطراب التي تُسبِّبُها المأساةُ الفلسطينية مصلحة للعالم كله، وللأوروبيين على الخصوص. ولذا ينبغي التشبُّث بهذا التغيير في السياسة الأميركية، والانطلاق للإسهام في إقامة الدولة الفلسطينية.

أما العاملُ الآخَرُ لعدم الاستقرار في منطقة المشرق العربي اليوم فكان وما يزال الغزو الأميركي للعراق عام 2003م. ولا أريدُ العودةَ للأسباب العبثية التي ذُكرت لتبريره. بيد أنّ النتائجَ كانت انهياراً للدولة العراقية، وتفكُّكاً اجتماعياً كبيراً، وتهجير حوالي الأربعة

ملايين عراقي داخل العراق وخارجه، وسقوط حوالي المليون عراقي ضحايا للغزو أو العنف الأعمى، ونشر التوتّرات في دول الجوار ومن ضمنها التوتّر السنّي/الشيعي، والتوتُّر الإيراني/العربي. والمعروفُ أنه ما كانت للغزو الأميركي شعبيةٌ في أوروبا، وقد جاهرت السلطتان الفرنسية والألمانية بمعارضته. وقد تبيَّن للأميركيين بعد العام 2005م أنهم لن يستطيعوا استيعاب نتائج الغزو بمفردهم، ولذلك ظهرت بالتدريج عدةُ فُرَصٍ للتدخل الدولي، وللتدخل العربي والأوروبي، للحدّ من الآثار المفزعة للغزو على شعب العراق، وعلى شعوب المنطقة. وذلك من طريقين: ترميم الكيان العراقي بقدر الإمكان بالوسائل السلمية والديمقراطية، وتأمين انسحاب القوات الأميركية من العراق في أمدٍ قريب. ويستطيع العربُ والأوروبيون بالعمل معاً ومنفردين ومن خلال المؤسسات الدولية الإسهامَ في تهدئة الأوضاع بالعراق عن طريق المصالحة الوطنية، وتشجيع تعاوُن دُوَل الجوار ومنها إيران وتركيا.

3

أما النوعُ الثالث من أنواع العلاقات والاهتمامات المشتركة بين العرب والغرب، وهو العاملُ البارزُ في الاضطراب بالمنطقة العربية اليومَ، فهو الملفّ الإسلامي. وهو ملفٌّ معقَّدٌ، ويتساوى في المسؤولية فيه العربُ والأميركيون والأوروبيون. ونحن نعلمُ أنّ أحداث 11 سبتمبر عام 2001م حوَّلت الإسلامَ إلى مشكلةٍ عالمية. ولا يختلفُ الثوَرانُ الإسلاميُّ في الأصل عن الحركات الإحيائيةRevivalist في سائر الديانات العالمية الكبرى. فهناك عنفٌ قويٌّ اليوم حتّى في الديانات المسالمة في العادة مثل الديانة الهندوسية. بيد أنّ العنف المعنويَّ أو الماديَّ في تلك الديانات محصورٌ في جوارها أو مواطنها الأصلية؛ في حين أنّ الاتجاهَ العنيف بداخل الإسلام الأُصولي تعدَّى الجوارَ المحلّيَّ إلى الولايات المتحدة وأوروبا. وقد برزت ظاهرةُ الإسلام الأصولي في النصف الثاني من القرن العشرين، وتمثلت في قيام إحيائيات دينية في عددٍ من البلدان العربية، وفي شبه القارة الهندية، ثم انتشرت في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وامتدَّت لاحقاً إلى بلدانِ المهجر وبخاصةٍ بعض البلدان الأوروبية. ويتميَّزُ أتباعُ هذه النزعة بعدم الرضا عن العالم من حولهم في مجتمعاتهم الخاصة أولاً، وفي العوالم الأخرى ثانياً. وقد ارتبطت هذه النزعة في البلدان العربية بالنفور من التغريب أو غربنة العالم. وتطورت الحركات الإسلامية الأصولية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي من حركات هوية إلى أحزاب دينية تريد إقامة الدولة الإسلامية التي تطبّق الشريعة. وقد اعتبرت أنّ الذي يحولُ دون ذلك: الغرب المادّي والأنظمة السياسية الحاكمة، والمؤسسات الدينية التقليدية، التي اعتبر الإسلاميون الجُدُد أنها مُوالية للحكّام ومتهاونة بشأن الهوية الإسلامية. وقد اصطدمت تلك الحركات أول ما اصطدمت بالأنظمة التي اعتبرتْها جاهلية ومتغرِّبة ولا تُطبِّق الشريعة. ثم ازدادت راديكاليةُ بعض الحركات بحيثُ كفَّرت المسلمين الآخرين بعد أن كفَّرت الغربيين. وكان يمكنُ أن تبقى حركاتٍ انشقاقيةً محدودةَ الأثر -وبخاصةٍ أنّ أكثرية المُقْبلين على الإسلام الجديد غير عنيفة- لولا أنّ الأميركيين استخدموا عشرات

الألوف من هؤلاء في أفغانستان ضدَّ الاتحاد السوفياتي، فكسبوا تجربة قتالية، والتقوا من بلدانٍ وثقافاتٍ مختلفة، وبرزت منهم عدة قيادات كان أبرزها أسامة بن لادن وأيمن الظواهري. وبقية القصةِ معروفة. فقد أنشأ هؤلاء تنظيم القاعدة الذي اتخذ من أفغانستان في عهد طالبان منطلقاً لنشر شبكاته في الديار العربية والإسلامية، ثم بين شباب المهاجرين في أوروبا وكندا وأوستراليا. وقد ردَّت الولاياتُ المتحدةُ ومعها الأوروبيون ومنٍ ورائهم العالم كلُّه بإعلان الحرب على الإرهاب الإسلامي. وما تزال تلك الحربُ معلنة حتى اليوم. وهي وإن تكن قد استطاعت إنزال ضربات قوية بالشبكات العنيفة، لكنها عجزت عن القضاء عليه، مما دفع وزير الدفاع الأميركي السابق دونالد رامسفيلد لإعلان (حرب أفكار) على الإسلام العنيف، ما تمكّنت أيضاً حتى الآن من النيل من شعبية الإسلاميين هؤلاء.

والواقعُ أنّ التغيير الذي نال من وعي الجيل الثالث من أجيال المهاجرين العرب والمسلمين في أوروبا ما اقتصر عليهم؛ بل إنّ الأوروبيين تغيَّروا أيضاً في العقود الأخيرة في مواقفهم من الآخَر والغريب، ومن العرب والمسلمين بالذات. وإلاّ فكيف نُعَلِّل هذا التقزُّز والنفور من غطاء الرأس لدى البنات المسلمات، وقد لبستْهُ أمهاتُهُم من قبل في أوروبا دون أن يثير مشكلة. وكيف نُعلِّل تعمُّدَ الإساءة إلى المسلمين والإسلام بالصُوَر الكاريكاتورية المعروفة بالدانمارك ضد النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، واعتبار ذلك جزءًا من حرية التعبير. ثم كيف نُعلِّل خُفُوتَ مقولتَي الحوار بين المسيحيين والمسلمين، وحوار الحضارات؛ بعد أن ازدهرت الأولى في الستينات على أثر مجمع الفاتيكان الثاني (1962-1965م)، والثانية في التسعينات بعد مقولة هنتنغتون بصراع الحضارات؟! والمعروف أنّ البابا الحالي كانتٍ له تحفظاتٌ على منهج الحوار، وعلى دخول تركيا للاتحاد الأوروبي باعتبارهما دولة مسلمة ضخمة تؤثّر سلباً على الهوية الأوروبية. وقد تراجع البابا عن بعض آرائه، لكنه ما تراجع عن بعضها الآخَر. ومع ذلك فأنا أرى أنّ هؤلاء الشبان المولودين بالغرب، ويمارسون أو يحاولون ممارسة أعمالٍ عنيفة لا يقومون بذلك لأنهم يُحسُّون بالغربة فقط أو لأنّ الأوروبيين ينفرون منهم فقط؛ بل هناك قدرٌ من الجاذبية في فكرةٍ التمايُز والممانعة والتشبُّث بالغرابة في الملبس، والحرص على الهوية الخاصة، إضافة لجاذبية فكرة الجهاد، والسُّخْط على ما يجري في فلسطين والعراق والشيشان.

والذي أراهُ أنّ النوافرَ العنيفة لدى الإسلاميين هي إلى زوال. ويُساعدُ ولا شكَّ على ذلك العملُ على حلّ المشكلات العالقة بالشرق الأوسط وشبه القارّة الهندية وأفغانستان. فالجهاد يحتاج إلى مشكلةٍ واحتلالٍ وحالات من عدم الاستقرار من أجل الاستثمار. وإذا اتخذتْ الحلول للمشكلات مساراً فإنّ الإسلاميين العنيفين لن يستطيعوا استقطاب أنصارٍ جُدُد. وإنما هم يستفيدون من وجود المشكلات ومن تفاقمها. وقد استطاع القوميون واليساريون من قبل كَسْبَ عشرات الآلاف من الشبّان للعمل السياسي أو العنيف من طريق رَفْع رايةِ فلسطين أو مُكافحة الاستعمار الغربي. ولكنّ الظاهرة الإسلامية لن تضعُفَ أو تزول قريباً.

فالتيار الإسلامي الرئيس ترك العنف منذ الثمانينات من القرن الماضي، ومع ذلك فهو قويٌّ ويزدادُ قوة. وهو لا يُهدِّد العالم بالعنف شأن المتطرفين، لكنه يميل للعُزلة والخصوصية والسيطرة على المجتمعات والدول، والتأثير السلبي في المفهوم المدني للدولة، كما يميل للانفصال عن العالم بوضوح. وليس هذا شأن المسلمين الأوروبيين، الذين تميلُ أكثريتُهم للاندماج، بيد أنها تتجهُ أكثر خلال العقدينِ الأخيرين للتمايُز والخصوصية باللباس والسلوك، وعدم الاهتمام بالشأن العامّ؛ بخلاف نُظرائهم في العالمين العربي والإسلامي. وهكذا فإنّ (إسلاميي الصحوة) كما يُسمُّون أنفُسَهم سيظلون ظاهرين في الساحتين الثقافية والسياسية. لكنهم لن يستطيعوا السيطرة على السلطة في دولةٍ عربيةٍ رئيسةٍ رغم محاولاتهم المتكررة. وهم يتغيّرون ببطءٍ، لكنّ الأمور تعودَ كما كانت قبل ظهورهم مهما تلاعموا.

*　　*　　*

أردتُ أن أتحدث عن الحلول وبناء الجسور، فتحدثتُ أكثر عن المشكلات. والواقعُ أنّ مراقبين كثيرين يقولون إنهما وجهان لعُملةٍ واحدة، بمعنى أنك عندما تتصدّى للمشكلات بالحل، فإنك تبني الجسور، وتُطوِّرُ العلاقات وتُقيمُ الشراكات. وهذا الأمر ليس صحيحاً على الإطلاق. فالمشكلات المستعصيةُ عوائق ولا شكّ. لكنّ البناءَ والتطوير يحتاجان إلى مبادراتٍ وأفكارٍ وإنجازاتٍ، وتؤدّي فيهما الدول والمؤسسات الخاصة، ومؤسسات المجتمع المدني أدواراً كبرى. ونحن محتاجون إلى الخروج من هذه الرؤية التشاؤمية للعالم، وللغرب على الخصوص. والغربُ محتاجٌ إلى الشجاعة والمُبادرة وعدم التوجُّس منا. لا نريدُ أن نُخيفَ العالم، ولا أن نخافَ منه، وإنما نريدُ الدخولَ فيه والمشاركة بفعالية. نحن محتاجون إلى الغرب والعالم من أجل التقدم، والغربُ والعالم محتاجان إلينا من أجل الذاكرة والتاريخ ومن أجل الحاضر والمستقبل. لا داعي للخوف على هويتنا من سطوة الحضارة الغربية التي صارت حضارة العالم. لكنّ الهيمنة استيلاءٌ وتخريبٌ ولن يقبل بها أحدٌ مهما بلغت فروقُ القوة والجَبَروت. سمعتُ الأستاذ رودي بارت Rudi Paret بجامعة توبنغن عام 1975م يقول لزميلٍ مغربيٍ شكا إليه أنّ ترجمتَه للقرآن ليست سَلسةً ولا تُعجبُهُ: أمامنا يا بُنيّ أحد سبيلين؛ سبيل روديارد كبلنغ الذي قال: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا؛ وسبيل Goetheالذي قال في (الديوان الشرقي) إنه لا يستطيعُ فهم الغربَ إلاّ بعيون الشرق، فإذا كنتُ لم أُحْسنْ ترجمة القرآن، فعُذري أنني حاولتُ، وسيحاول غيري من بعد، وستكون هناك مشكلةٌ كبرى إن توقَّف كلٌ منا عن محاولةِ فهم الآخر!